سُورَةُ الحَجِّ

مدنية وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابٌ يعم حكمه جميع المكلفين، إلى يوم القيامة ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ أي احذروا عقابه، واعملوا بطاعته، والمأمور به مطلق التقوى، الذي هو التجنب عن كل ما يؤثم به، أي احذروا عقوبة مالك أموركم، ومربيكم، رب العزة والجلال ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ إضافتها إلى الساعة، إضافة المصدر إلى فاعلها، كأنها هي التي تزلزل الأشياء، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرضُ زلزالها﴾ وعن ابن عباس زلزلة الساعة: قيامُها، وعن علقمة والشعبي: أنها قبل طلوع الشمس من مغربها ﴿شَيْءٌ عَظِيمٞ﴾ والتعبير عنها بالشيء، إيذان بأن العقول، قاصرة عن إدراك كنهها.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾.

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ أي وقت رؤياكم الزلزلة ﴿ تَذْهَلُ ﴾ أي تغفل وتنسى مع دهشة ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ أي مباشرة للإرضاع ﴿ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ عما بصدد إرضاعها من طفلها ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي تلقي جنينها لغير تمام، وهو تمثيل لتهويل الأمر، فالأمر حينئذٍ أشد وأعظم مما وُصف ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ ﴾ أي يراهم كل أحد ﴿ سُكَٰرَىٰ ﴾ كأنهم سكارى ﴿ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ حقيقة ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ فيرهقهم هوله، وتطير له عقولهم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ كلام مبتدأ لبيان حال بعض المنكرين للساعة، أي وبعض الناس ﴿ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ ﴾ أي في شأنه تعالى، ويقول فيه ما لا خير فيه ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بلا علم وحجة، روي أنها نزلت في النضر بن الحارث، وكان كثير الجدل، يقول: لا بعث بعد الموت، والقرآن أساطير الأولين، وهي عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين، والمراد من هذه المجادلة، هو المجادلةُ في البعث، لأن ما قبل هذه الآية وما بعده في أمر البعث ﴿ وَيَتَّبِعُ ﴾ أي يطيع ويقتدي في عامة أحواله ﴿ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ أي متجرد للفساد، عات متمرد والمراد ههنا رؤساء الكفر الصادين عن الحق، الذين يدعون من دونهم إلى الضلال.

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ أي على من تولى الشيطان، واتخذه له صديقاً ﴿ أَنَّهُ ﴾

أي أن الشأن ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي اتخذه ولياً وتبعه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ عن سواء السبيل، لأنه جبل عليه ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي يدعوه ويحمله مباشرة على السيئات التي توصله إلى عذاب جهنم المستعرة، وعبَّر بلفظ ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ على طريقة التهكم، لأن الهداية لا تكون إلى عذاب الجحيم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ إثر ما حكى أحوال المجادلين بغير علم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه ﴿ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى، أو من وقوعه ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم ﴾ أي فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم فإنا خلقنا كل فردٍ منكم ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ في ضمن خلق آدم عليه السلام منه خلقاً إجمالياً ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي منيٍّ، من النَّطْفِ الذي هو الصبُّ، وهذا المنيُّ يحصل من الأغذية، التي تتكون من التراب، يقال: نَطَفَ أي سال، والنطفةُ ماءُ الرجل والمرأة ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ أي قطعة من الدم جامدة متكونة من المني، والعلقةُ: شيء متجمد من المنيّ، ينتقل بعد طرده فيصير دماً غليظاً متجمداً، ثم ينتقل طوراً آخر فيصير لحماً، وهو المضغة ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ أي قطعة من اللحم متكونة من العلقة ﴿ مُّخَلَّقَةٍ ﴾ أي مستبينة الخلق ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي لم يستبن خلقُها، والمراد تفصيل حال المضغة، وكونها أولاً قطعة لحم، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت شيئاً فشيئاً ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أي خلقناكم على هذا

النمط البديع، لنبين لكم بذلك قدرتنا، وحكمتنا[1]، مما لا يحيط به العقل، من الدقائق التي من جملتها سر البعث، فإنَّ من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجي، تأملاً حقيقياً، جزم جزماً ضرورياً، بأن من قدر على خلق البشر، من تراب لم يشم رائحة الحياة قطُّ، فهو قادر على إعادته، بل هو أهون في القياس، ولهذا قال تعالى: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ أي ونحن نقرُّ ونثبت في الأرحام بعد ذلك، ما نشاء أن نقره فيها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع، وأدناه ستة أشهر، وأقصاه سنتان، وفيه إشارة إلى أن بعض ما في الأرحام لا يشاء الله إقراره فتسقطه ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ أي حال كونكم أطفالاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً، ثم لتبلغوا كمالكم في القوة، والعقل، والتمييز، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله، أو بعده ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي ليعود إلى ما كان عليه، في أوان الطفولة، من ضعف البنية، وسخافة العقل، وضعف الذاكرة ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ حجة أخرى على صحة البعث، والخطاب لكل أحد، و(هامدة) حال من الأرض أي ميّتة، يابسة، من همدت النار إذا صارت رماداً، وذهب حرُّها ولم يبق منه شيء ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وازدادت ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن رائق، يسرُّ ناظرَه، وهذه دلالة كررها الله تعالى في كتابه، لظهورها وكونها مشاهدة.

---

(١) دلالة تولد الإنسان من النطفة على وجود الصانع، من أظهر الدلائل، لأن حدوث الإنسان، إنما كان بسبب اجتماع أجزاء متفرقة، في بدن الوالدين، بل في جميع العالم، فلما قدر الصانع، على جمع تلك الأجزاء المتفرقة، وجب أن يقال: إنه بعد موته، وتفرق أجزائه، لا بد أن يقدر الصانع، على جمع تلك الأعضاء، وجعلها خلقاً سوياً كما كان ذلك أولاً، فهذا برهان ناصع، ولهذا استدل به القرآن.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة، وإحياء الأرض بعد موتها، لبيان أن ذلك من آثار ألوهيَّته تعالى ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي ذلك الصنع البديع، حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده، في ذاته وصفاته وأفعاله، المحقق لما سواه من الأشياء ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي شأنه إحياؤها، وأنه قادر على إحيائها، بدءاً وإعادة، وإلاَّ لما أحيا النطفة، والأرض الميتة مراراً ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي مبالغ في القدرة فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات، لزم اقتداره على إحيائها كلها.

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ فيما سيأتي، وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على تحقق إتيانها، لاقتضاء الحكمة إياه لا محالة ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ في ظهور أمرها، ووضوح دلائلها ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ للجزاء، وهذه كما ترى من أحكام حكمته وجلاله، أنه تعالى حكيم عادل، لا يخلف ميعاده، وقد وعده بالساعة والبعث، فلا بدَّ أن يفي بذلك.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الآية فيمن يتصدى لإضلال الناس، كما أن الأول فيمن يقلّدهم فلا تكرار ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ هو الاستدلال بالأدلة العقلية ﴿ وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي وحي مظهرٍ للحق، فالمعنى: يجادل في شأنه تعالى، من غير تمسك بمقدمة علمية، ولا بحجة نظرية، ولا برهان سمعي، فهو يجادل بالباطل.

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ ﴾ أي عاطفاً لجانبه، معرضاً متكبراً، فإن ثني العِطْف كنايةٌ عن التكبر ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ متعلق بيجادل، فإن غرضه الإضلال عنه، وإن لم يعترف بأنه إضلال، أو معرضاً عن الحق استخفافاً به ﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أي النار الشديدة المحرقة.

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروي ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أي بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي، والالتفات لتأكيد الوعيد، وكنَّى عنه باليد، لأن اليد آلة الكسب ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، وإنما هو مجازٍ لهم على أعمالهم، فحكمه عدل.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ ﴾ شروع في بيان حال المذبذبين، إثر بيان حال المجاهرين ﴿ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ ﴾ أي على طَرَفٍ من الدِّين، وهذا مَثَلٌ لكونه على قلق، كالذي ينحرف إلى طرف الجيش، إن أحسَّ بظفر قَرَّ، وإلاَّ فَرَّ ولهذا قال سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ من الصحة والسعة، أي ثبت على ما كان عليه ظاهراً، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين، الذين لا يلويهم عنه صارف ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي شيء يُفتتن به من مكروه يعتريه في

نفسه، أو أهله، أو ماله ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي ارتدَّ ورجع إلى الوجه الذي كان عليه، من الكفر، روي أنها نزلت في قوم من الأعراب، «كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا صحَّ بدنه، ونتجت فرسُه مهراً، وولدت امرأته غلاماً، وكثر ماله، قال: هذا دينٌ حَسَنٌ، وقد أصبت فيه خيراً واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً، وانقلب»[1] ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ ضيَّعهما بذهاب عصمته، وحبوط عمله بالارتداد ﴿ذَٰلِكَ﴾ خسران الدارين ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَدْعُواْ﴾ استئناف مبين لعظم الخسران ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يعبد متجاوزاً عبادة الله تعالى ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إذا لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عبده، أي يعبد جماداً ليس من شأنه الضر والنفع ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الدعاء والعبادة لغير الله ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الحق والهدى.

﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَدْعُواْ﴾ استئناف لتقرير كونه ضلالاً بعيداً ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي يعبد وثناً وصنماً ضرُّه في الدنيا ـ لو سلمنا ضره ونفعه ـ أكثر من نفعه، لأنه يعبد جماداً لا حسَّ له ولا شعور، فهو يتضرر بعبادته دون أي جدوى أو منفعة، وإيراد صيغة التفضيل مع خلوّه عن النفع، للمبالغة

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج عن ابن عباس، وانظر كامل الرواية في جامع الأصول ٢/ ٢٤١.

في تقبيح حاله، أي يقول يوم القيامة حين يرى تضرره بمعبوده، ودخول النار بسببه ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الناصر هو ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ ولبئس المصاحب هو، وقيل: هذا في الرؤساء، وهذا الوصف بالرؤساء أليق، ولا يستعمل في الأوثان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ استئناف لبيان حال المؤمنين، العابدين له، إثر بيان غاية سوء حال الكفرة ومآلهم، وأن معبودهم لا يجديهم شيئاً من النفع، بل يضرهم مضرة عظيمة، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليل لما قبله وتقريرٌ له، أي يفعل كل ما يريده من الأفعال اللائقة المبنية على الحكم الرائعة التي من جملتها إثابة من آمن وعقاب من أشرك به.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ الضمير في ﴿ينصره﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام تحقيقاً للنصرة، وتقريراً لثبوتها، على أبلغ وجه، وفيه إيجاز بارع، والمعنى: أنه تعالى ناصرٌ لرسوله ﷺ في الدنيا والآخرة، لا محالة، فمن كان يغيظه ذلك، من أعاديه وحسَّاده، فليبالغ في استفراغ المجهود، فقصارى أمره أن يختنق خنقاً ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي فليمدد حبلاً إلى سقف بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ليختنق بحبس مجاريه ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ أي فلْيتصوَّر في نفسه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ أي إن فعل ذلك بنفسه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أي ما يغيظه من النصرة؟ كلاَّ، يعني أنه لا يقدر على

دفع النصرة وإن مات غيظاً، وسمَّىٰ فعله كيداً على سبيل الاستهزاء[1].

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحِكَم البالغة ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحات الدلالة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى ﴾ به ابتداء ويثبت على الهداية ﴿ مَن يُرِيدُ ﴾ هدايته وتثبيته.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ ﴾ قيل هم قوم يعبدون النار، وقيل: الشمس والقمر ﴿ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ ﴾ هم عبدة الأصنام ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ﴾ فيجازي كلاً ما يليق به، ويدخله المحل المعد له ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تعليل لما قبله، أي عالم بكل شيء، ومراقب لأحواله، ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾.

---

(١) خلاصة معنى الآية: من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله في الدنيا والآخرة، فليمدد بحبل إلى السقف ثم يشنق نفسه، ويختنق به، فلينظر هل يشفي ذلك ما في صدره من الغيظ من دعوة الرسول ﷺ؟ قال الحافظ ابن كثير: وهذا القول قول ابن عباس، وهو أظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم، أي فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية، والمراد بالسجود الانقياد التام لتدبيره تعالى، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، وقيل: إن الكل يسجد له، ولكنا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ أفردها بالذكر لاستبعاد ذلك منها عادة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿وَكَثِيرٌ﴾ معطوف على كثير الأول، للإيذان بغاية الكثرة، ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب، كأنه قيل: وكثير من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي بكفره واستعصائه ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بأن كتب عليه الشقاوة، حسبما عَلِمه من صرف اختياره إلى الشر ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ من الأشياء التي من جملتها الإكرام والإهانة.

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ أي فريق المؤمنين، وفريق الكفرة، يختصمان والخصم صفة وُصف بها الفوج، فكأنه قيل: فوجان يختصمان ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي في شأنه عزَّ وجل ودينه، في ذاته وصفاته، كلٌ من الفريقين له خصومة على الفريق الآخر، فقد تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقالت اليهود: نحن أحق بالله، وأقدمُ منكم كتاباً ونبياً، وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله منكم، آمنا بنبينا ونبيكم، وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تكفرون به حسداً ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿يفصل بينهم يوم القيامة﴾ ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ﴾ قدرت على مقادير

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

جثثهم ﴿ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي نيران هائلة، تحيط بهم إحاطة الثياب بلابسها ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ أي الماء الحار الذي انتهت حرارته.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ يذاب بالحميم الذي يصب ﴿مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ من الشحوم، والأحشاء، والأمعاء ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ أي تشوى جلودهم فتتساقط، إذا صبَّ الحميم على رؤوسهم، لغاية شدة الحرارة.

﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَهُم﴾ للكفرة أي لتعذيبهم ﴿مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ جمع مقْمَعة، وهي آلة القمع، أي سياط يُجلدون بها.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ أي كلما أشرفوا على الخروج من النار لما يلحقهم ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ أي من غم شديد من غمومها ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ أي في قعرها، بأن رُدُّوا من أعاليها إلى أسافلها، من غير أن يخرجوا منها ﴿وَذُوقُوا۟﴾ أي قيل لهم ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي النار البالغة في الإحراق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين، وتصدير الجملة بحرف التحقيق، إيذاناً بمباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهاراً لمزيد العناية بأمر المؤمنين ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ من حلَّيتُ المرأة إذا ألبستها الحلي ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع سوار، وهو ما يلبس في المعصم ﴿ مِن ذَهَبٍ ﴾ أي الأساور الذهبية ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ أي ويُحلَّون باللؤلؤ كذلك إكراماً لهم ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أي ولباسهم في الجنة الحرير، وهو أرفع اللباس وأفضله.

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي الكلام الطيب، والقول النافع، إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب، فهم في ذكر وتسبيح كقولهم: ﴿ الحَمْدُ للهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي المحمود وهو الجنة، دار الخلد والنعيم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بما جاء به رسول الله ﷺ ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أي ويمنعون الناس عن طاعة الله والدخول في دينه، كما يمنعونهم عن أداء المناسك في البيت الحرام، قال ابن عباس: نزلت الآية عام الحديبية، لأن قريش صدُّوا رسول الله ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام ﴿ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ ﴾ أي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس، كائناً من كان، من غير فرق بين قلبي وآفاقي، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إنهما يستويان في سكنى مكة فليس أحدهما أحق بالمنزل الذي يكون فيه من

الآخر، إلا أن يكون واحد سبق إلى المنزل، وهو مذهب أبي حنيفة واحتجوا عليه بالآية الكريمة، وبالخبر، وهو قوله ﷺ: «مكة مباحة لمن سبق إليها» واحتج الشافعي رحمه الله بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ فقد نسب الدور لهم، وقوله ﷺ يوم مكة «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» وإن أريد بالمسجد الحرام البيت فالمعنى أنه قبلة لجميع الناس ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي المقيم وغير المقيم وفائدة وصف المسجد بذلك، زيادة تشنيع الصادين عنه، والبدو خلاف الحضر ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه قيل ومن يرد مراداً ما ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ بعدول عن القصد ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حق، وهما حالان مترادفان أي ملحداً بسبب الظلم، كالإشراك، واقتراف الآثام، وكل شيء كان منهياً من قول، أو فعل، روى يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام في الحرم إلحادٌ فيه»[1] ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي نذقه أشد أنواع العذاب الموجع، لأن الكفر والصد من أشد أنواع الإلحاد فيه، وكلٌّ من ارتكب ذنباً فهو كذلك.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي اذكر وقت جعلنا ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ مباءة له عليه السلام أي مرجعاً إليه، للعمارة، والعبادة، وقيل (بوأنا) أي بيَّنا مكان البيت فبعث الله سبحانه ريحاً، فكنست له ما حول البيت عن الأساس وقيل: بعث الله سحابة بقدر البيت وقيل يا إبراهيم ابْنِ على قَدْرِها ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ مفسرة لبوأنا لأنه متضمن لمعنى تعبدنا، أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي شيئاً ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ أي وطهر بيتي من الأوثان

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢٠٢٠ في المناسك، باب تحريم حَرَم مكة.

والأقذار ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي لمن يطوف، ويصلي فيه، عبّر عن الصلاة بأركانها، لأن الركوع والسجود أهمُّ أركانها.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي أعلم ونادِ فيهم ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوة الحج، والأمر به، روي أنه عليه السلام «صعد أبا قبيس، فقال: يا أيها الناس حجُّوا بيت ربكم، فأسمعه الله تعالى من قُدِّر لهم أن يحجوا، فقالوا لبيك اللهم لبيك» ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي مشاةً على أرجلهم جمع راجل ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول، أتعبه بُعْدُ السفر ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لضامر، لأنه في معنى الجمع ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ أي من كل طريقٍ واسع ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد، فمن أتى الحج، فكأنه قد أتى إبراهيم عليه السلام، لأنه مجيب لندائه، يُقال: ضَمَرَ الفرسُ أي هَزُل ودقَّ وقلَّ لحمه، وقدَّم الرجال على الركبان، إظهاراً لفضيلة المشاة، والحج فريضة لما روي عنْ أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناسُ قد فَرَض الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا»[1].

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ أي ليحضروا ﴿مَنَـٰفِعَ﴾ عظيمة الخطر، كثيرة العدد، من المنافع الدينية والدنيوية، المختصة بهذه العبادة ﴿لَهُمْ﴾ أي كائنة لهم

(١) طرف من حديث أخرجه مسلم رقم ١٣٣٧ في الحج.

﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عند ذبح الهدايا والضحايا، ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ هي أيام النحر، وهي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة وآخرها يوم النحر، وهو قول ابن عباس، وقول أكثر المفسرين، وعند صاحبيه هي أيام النحر، وهو قول ابن عمر ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهو يؤيد قولهما، علق الفعل بالمرزوق، وبيّن بالبهيمة تحريضاً على التقرب، وتنبيهاً على الذكر ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أي فاذكروا اسم الله على ضحاياكم، وكلوا من لحومها، والأمر للإباحة لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ المحتاج.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ أي ليؤدوا إزالة وسخهم، قيل: قضاء التَّفثِ قصُّ الشارب، والأظفار، ونتف الإبط، والاستحداد، والتَّفَثُ: الوسخ. تَفِثَ من باب تعِب. إذا ترك الأدهان فعلاه الوسخ ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرونه من البر في الحج، وقيل مواجب الحج ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ أي ليطوفوا طواف الزيارة، الذي هو ركن الحج، ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الوداع ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي القديم، لأنه أول بيت وضع للناس، أو المعتَق من تسلط الجبابرة، روى مسلم عن جابر بن عبد الله، في قصة حجة الوداع، قال: «وقدم عليٌّ بِبُدنٍ من اليمن، وساقَ رسولُ الله ﷺ مائةَ بَدَنة، فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بَدَنة، ونحر عليٌّ ما غَبَر ـ أي ما بقي ـ ثم أمر من كل بَدَنة ببَضْعَةٍ، فجُعلتْ في قِدرٍ وطُبخت، فأكل من لحمها، وشربَ من مرقها»[1].

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الحج، حجة الوداع وهو حديث طويل مشهور، وهذا طرف منه برقم ١٢١٨ وانظر تمامه في جامع الأصول ٣/ ٤٦٠.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر ذلك، هذا وأمثاله يُطلق للفصل بين الكلامين ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه من التكاليف، وقيل الكعبة، ومعنى التعظيم، العلم بأنها واجبة، والقيام بمراعاتها ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ فالتعظيم خير له ثواباً ﴿ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ في الآخرة ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ أي أن تأكلوها بعد الذبح ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي تحريمه ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ الرِّجسُ: النجسُ والقذر، وسمى الأوثانَ رجساً، لأن عبادتها أخبث من التلوث بالنجاسات ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور، وكأنه حثَّ على تعظيم الحرمات، وأتبع ذلك بتحريم شهادة الزور، لأنها تعدل الإشراك بالله، كما ورد في الحديث الشريف[1]، وقيل: هو عمل أهل الجاهلية حيث كانوا يقولون في تلبيتهم «لبيك لا شريك لكَ، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ أي مستسلمين لأمر الله غير مشركين به أحداً ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ جملة مؤكدة لما قبلها، وإظهار الاسم الجليل،

---

(١) أشار إلى الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس عدلت شهادةُ الزور الإشراك بالله، ثم قرأ ﷺ: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾».

لإظهار قبح الإشراك ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سقط، لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي فتتخطفه الطير، وتمزّقه كل ممزق، وتسلبُه بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي تذهب به وتقذفه ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد، لا نجاة له ولا خلاص، شبَّه الإيمان بالسماء في علوه، والذي أشرك بالساقط منه، والأهواء الرديّة بالطير المختطفة، والشيطان بالريح التي تهوي في المهاوي المتلفة.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي الهدايا والأضاحي فإنها من معالم الحج وشعائره تعالى، كما ينبىء عنه قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ الله﴾ وهو الأوفقُ لما بعده، وقيل شعائر الله: أعلام دينه، وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجلِّ القربات، وأن يختارها حساناً سِماناً غالية الأثمان، روي أن عمر رضي الله عنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي فإن تعظيمها ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي من أفعال ذوي تقوى القلوب، وتخصيصها بالإضافة لأنها مراكز التقوى، التي إذا ثبت فيها الإيمانُ وتمكنت، ظهر أثرها في سائر الأعضاء فإن قال قائل: ما الحكمة أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات؟ فالجواب قوله تعالى:

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الهدايا وقيل في شعائر الله ﴿مَنَافِعُ﴾ هي درها ونسلها وصوفها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والأكل منه ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي وجوب نحرها منتهية ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي إلى ما يليه من الحرم، فالحرمُ كله مكانٌ لنحر الهَدْي وذبحه.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي لكل أهل دين ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ أي متعبداً وقرباناً، يتقربون به إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿ لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ خاصة دون غيره، فالمقصود الأصلي من المناسك، تذكر المعبود ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ عند ذبحها، بيَّن تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى، وعلى اسمه، لأنه هو الخالق الرازق، لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الخطاب للكل تغليباً، ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أخلصوا له العبادة والطاعة، ولا تشوبوه بالإشراك ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ تجريد للخطاب إلى الرسول ﷺ، أي المتواضعين أو المخلصين في عبادتهم لله.

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ لإشراق أشعة جلاله عليها، وخافت منه تعالى هيبة ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ من مشاق التكاليف، ومؤونات النوائب ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي ينفقون بعض أموالهم ابتغاء مرضاة الله.

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة وإنما سميت الإبل بُدْناً لعظم بَدَنها ﴿ جَعَلْنَٰهَا لَكُمْ ﴾ سخرناها لكم ﴿ مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ من أعلام دينه التي شرعها

الله تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي منافع دينية، ودنيوية ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي عند ذبحها بأن تقولوا: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك» ﴿صَوَافَّ﴾ أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت بعد النحر، ووقعت على الأرض، وهو كناية عن الموت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ الراضي بما عنده، وبما يُعطى من غير مسألة، والمراد به المتعفف الذي لا يسأل الناس ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي السائل وهو الذي يريك نفسه، ويتعرض لك، والمعتر: هو الذي يطيف بالناس ويطلب منهم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التسخير ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ مع عظمها ونهاية قوتها، فلا تستعصي عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله على إنعامه.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ﴾ أي لن يبلغ مرضاته، ولن يصل إليه سبحانه شيء من ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدق بها ﴿وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ المهراقة بالنحر، من حيث إنها لحوم ودماء ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصيبه تقوى قلوبكم، التي تدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى، وتعظيمه، والإخلاص له ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تكرير للتذكير، والتعليل بقوله ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره، فتوحّدوه بالكبرياء ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أي أرشدكم إلى طريق تسخيرها ولمعالم دينه، ومناسك حجه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المخلصين في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي يدفع عنهم بأس المشركين، هذه بشارة للمؤمنين بأن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم، وصيغة المفاعلة للمبالغة أي يدافع عنهم مرة بعد أخرى، حسبما تجدَّد منهم الإضرار بالمسلمين كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارَاً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾[1] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ تعليل لما في ضمن الوعد الكريم، وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي، أي أن الله يبغض كل خوان في أماناته، وهي أوامره ونواهيه، وكفور لنعمته.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ أُذِنَ ﴾ أي رُخِّص ﴿ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ ﴾ أي يقاتلهم المشركون، والمأذونُ فيه محذوف، لدلالة المذكور عليه، أي أذن لهم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم، فإن مقاتلة المشركين إياهم، دالة على الإذن لهم بالقتال ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ أي بسبب أنهم ظلموا، وهم أصحاب النبي ﷺ، كان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونه ﷺ بين مضروبٍ ومشجوج، ويتظلَّمون إليه فيقول ﷺ لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجروا، فأنزلت الآية، وهي أول آية نزلت في القتال، بعدما نهى الله تعالى عنه، فيما يزيد على سبعين آية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعدٌ لهم بالنصر، وتأكيد لما مر من العدة بالدفع وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدي المشركين، بل تغليبهم وإظهارهم عليهم، والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم، وارد على سنن الكبرياء، وتأكيده بكلمة التحقيق واللام، لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٤.

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ يعني مكة ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أي بغير ما يوجب إخراجهم ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي بغير موجب سوى التوحيد، الذي ينبغي أن يكون موجباً للإقرار والتمكين، دون الإخراج من الديار والأوطان، ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ ؟ الآية على طريقة قول النابغة:

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل ﴿ صَوَٰمِعُ ﴾ للرهبانية المتخذة في الصحراء ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ هي معابد النصارى في البلد ﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يُصَلَّى فيها ﴿ وَمَسَـٰجِدُ ﴾ للمسلمين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أي ذكراً كثيراً وهي صفة مادحة للمساجد، خُصَّت بها، دلالة على فضلها، وفضل أهلها[1] ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ أي والله لينصرن الله من ينصر رسوله ودينه، ولقد أنجز الله وعده، حيث سلَّط الله المهاجرين والأنصار، على صناديد العرب، وأكاسرة

(١) فإن قيل: أيُّ منَّةٍ على المؤمنين في حفظ الصوامع والكنائس؟ فالجواب أن المراد من الآية الكريمة، لهدّمت صوامع في زمن عيسى، وكنائس في زمن موسى، ومساجد في زمن النبي ﷺ، فالامتنان في الآية على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة، وكأن الآية تقول: لولا دفاع الله عن المؤمنين في كل زمان، لهدمت معابد أهل الأديان جميعها.

العجم، وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قوي على كل ما يريده، لا يعجزه شيء، وعزيز لا يمانعه شيء ولا يدافعه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ وصفٌ من الله عزَّ وجلَّ للذين أُخرجوا من ديارهم، بما سيكون منهم من حسن السيرة، عند تمكينه تعالى إياهم في الأرض، منبىء عن عِدة كريمةٍ، على أبلغ وجه، وعن عثمان رضي الله عنه قال: «هذا ثناء والله قبل بلاء» يريد أنه تعالى أثنى عليهم، قبل أن يُحدثوا من الخير ما أحدثوا، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين، لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين، ونفاذ الأمر، مع السيرة العادلة ﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصة ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ متضمنة للوعد بإهلاك من يعاديه، أي وإن تحزن على تكذيبهم إياك، فاعلم أنك لست وحدك في ذلك ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل تكذيب قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ كذَّبوا رسلهم: نوحاً، وهوداً، وصالحاً.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ﴾ كذبوا رسلهم أيضاً، وإنما

حذف لكمال ظهور المراد، أو لأن المراد، نفس الفعل ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ غيَّر النظمَ الكريم، وبنى الفعلَ للمجهول، للإيذان بأن تكذيبهم له، كان في غاية الشناعة، لكون آياته في كمال الوضوح، أي وكُذِّب موسى مع وضوح آياته، وعظيم معجزاته، فما بالك بغيره؟ حتى بنو إسرائيل قد كذَّبوه مرة بعد أخرى، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أمهلتهم حتى انصرمت آجالهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أخذت كل فريق من المكذبين، بعد انقضاء مدة الإمهال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم؟ بتغيير النعمة نقمة، والحياة هلاكاً، والعمارة خراباً! ؟.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي أهلكنا كثيراً من القرى، بإهلاك أهلها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وأهلها ظالمون بكفرهم وتكذيبهم لرسل الله ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي وكم بئرٍ عامرة في البوادي تُركت لا يُستسقى منها، لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي مرفوع البنيان، أخليناه من ساكنيه، أفليس في ذلك عبرة للمعتبرين؟.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثٌّ لهم على أن يسافروا، ليروا مصارع المهلكين، فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فيها، ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار، جعلوا غير مسافرين، فحُثُّوا على ذلك ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ بسبب ما شاهدوه ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد ﴿أَوْ

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يسمع من أخبار الأمم المهلكة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ الضمير للقصة وفي تعمى ضمير راجع إليه، وقد أقيم الظاهر مقامه ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم، باتباع الهوى، والانهماك في الغفلة، وذكر الصدور للتأكيد، كأنه قال: لا عمى في أبصارهم، فإنهم يرون بها، لكن العمى في قلوبهم، لأنهم لم ينتفعوا بما أبصروه.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي ويستعجلك المشركون بالعذاب سخرية واستهزاءً فيقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟ وفي ذلك دلالة على أنه ﷺ كان ينذرهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي لن يخلف الله وعداً أبداً، فلا بدَّ من مجيئه حتماً، والجملة حالية كأنه قيل: كيف ينكرون مجيء العذاب، والحال أنه تعالى لا يخلف وعده؟ وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه ولو بعد حين؟ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ الآية سيقت لبيان خطئهم في الاستعجال ببيان سعة ساحة حلمه تعالى، لأنه حليم لا يعجّل العقوبة، والمدة القصيرة عنده تعالى، مدد طوالٌ عندهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَه بَعِيداً ونَرَاهُ قَرِيباً﴾ ويتخذون تأخير العذاب ذريعةً إلى إنكاره، ويجترئون على الاستعجال به، ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها ما عنده تعالى من المقدار، فيوم واحد من أيام عذابه، في طول ألف سنةٍ من سنيّكم، ولهذا قال بعده.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكم من أهل قرية ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمليت لهؤلاء، حتى أنكروا واستعجلوا به استهزاءً، كما فعل هؤلاء ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنكال بعد الإمهال ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي إلى حكمي، مرجع الكل جميعاً، لا إلى أحد غيري.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي أنذركم إنذاراً بيّناً، من غير أن يكون لي دخلٌ، حتى تستعجلوا مني العذاب، وإنما اقتصر على الإنذار، مع أنه بشير للمؤمنين ومنذر للمشركين، لأن الحديث عن المشركين المستهزئين، وإنما ذكر ثواب المؤمنين بعده زيادة في غيظ الكافرين.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدخل فيه كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يدخل فيه أداء كل ما يجب، وترك كل محذور ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما وقع منهم من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة، والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله، بيَّن الله تعالى أن من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، يجمع الله له بين المغفرة، والرزق الكريم.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ بالردِّ، والطعن، حيث سموها شعراً، وسحراً، وأساطير الأولين ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي سابقين في زعمهم لإطفاء نور الله، طامعين أن كيدهم للإسلام يتمُّ لهم، وأصله من عاجزه إذا سابقه، لأن كلاً

من المتسابقين، يريد إعجاز الآخر، عن اللحاق به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي ملازمو النار الموقدة، وأهلُها وأصحابُها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة، والنبي يعمُّه، ويشمل من بعثه لتقرير شريعة سابقة ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي هيأ في نفسه ما يهواه ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ في تشهّيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فيبطله ويذهب به، بعصمته عن الركون إليه، وإرشاده إلى ما يزيحه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في شؤون الحق ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يُعلم ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعل بما يحقّق المصالح[1].

---

(١) الغرض من هذه الآية، أن الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإن عصمهم الله عن الخطأ في العلم، فلم يعصمهم من جواز السهو عليهم، بل حالهم في ذلك كحال سائر البشر، وأمّا ما قيل: إنه ﷺ كان في نادي قومه، يقرأ سورة النجم، فلمَّا بلغ قوله: ﴿وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ جرى على لسانه «تلك الغرانيق العُلى. وإن شفاعتهنَّ لتُرتجى» ففرح به المشركون، حتى شايعوه بالسجود، لمَّا سجد في آخر السورة، ثم نبهه جبريل عليه السلام، فاغتمّ فعزَّاه الله عزَّ وجلَّ بهذه الآية، فهذا كلام باطل مردود على قائله، وقد ولع به كثير من المستشرقين، فخبُّوا في الحديث فيه وأوضعوا، للطعن في الوحي، ومن أعجب العجب، أن يأخذ به بعض المفسرين من المسلمين، وهو مردود عند المحققين، ولذلك لم يتردد ابن إسحق، حين سُئل عنه في أن قال: «إنه من وضع الزنادقة» والذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا، فأسندوه إلى هذه الآية، وآية: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾[1]. =

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٣.

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ علة لما ينبىء عنه ما ذكر من إلقاء الشيطان في حق الرسول ﷺ، أي ليجعل تلك الشُّبَه والوساوس التي يلقيها الشيطان

= والاحتجاج بهذه الآيات، احتجاج مقلوب، فقصة الغرانيق المكذوبة تقضي بأن الرسول ﷺ رَكَن إلى قريش بالفعل، والآية هنا تقول: إن الله ثبَّته فلم يفعل، على أن الاحتجاج بها يتنافى مع عصمة الرسل، في تبليغ رسالاتهم، ويتنافى مع تاريخ الرسول ﷺ، وكل ما فيها احتجاج متهافت، وأمَّا الآيات التي نحن في تفسيرها، فلا صلة لها بحديث الغرانيق البتَّة، وأول ما يدل على أن هذه القصة موضوعة، اضطرابُ رواتها، وانقطاعُ سندها، واختلافُ ألفاظها، فقائل يقول: إن النبي ﷺ كان في الصلاة، وآخر يقول: قرأها وهو في نادي قومه، وآخر يقول: قرأها وقد أصابته سِنَةٌ، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وغير ذلك، ولم يروها أحد من أهل الصحة، ولا أسندها ثقةٌ بسندٍ صحيح، أو سليم متصل، وإنما روَاها المفسرون، والمؤرخون المولعون بكل غريب، الملفِّقون من الصحف كل صحيح وسقيم، وقد قامت الدلائل على صدقه ﷺ، وأجمعت الأمة على عصمته، ونزاهته من مثل هذا، ومن الإخبار عن شيء من التبليغ بخلاف ما هو به، لا قصداً، ولا سهواً، ولا غَلَطاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ وقال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فكيف يجوز الغلط عليه ﷺ في التلاوة، وهو معصومٌ منه؟ ودليل آخر أقوى وأقطع، وهو سياق سورة النجم، وعدم احتماله لمسألة الغرانيق، لأن هذا السياق صريح، في أنَّ اللاَّت والعُزَّى، أسماءٌ سمَّاها المشركون، هم وآباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان، وإن في هذا السياق، من الفساد، والاضطراب، والتناقض، ومدح اللاَّت والعزى وذمِّها، في أربع آيات متعاقبة، ما لا يسلِّم به عقل، ولا يقول به إنسان، مع أن وصف العرب لآلهتهم، بأنها الغرانيق، لم يرد في نظمهم، ولا في خطبهم، ولم يُنقل عن أحد، أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما أورد الغرنيق، على أنه لطائر مائي، ولا شيء في ذلك ممَّا يلائم معنى الآلهة، أو وصفها عند العرب، فلا أصل إذن لمسألة الغرانيق وكلها أخبار باطلة.

﴿فِتْنَةً﴾ محنة وابتلاء ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شكٌّ ونفاق ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين فيزدادوا به ظلمة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي الفريقين المذكورين في عداوة شديدة، ومخالفة تامة، فوضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هو النازل من عنده تعالى ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، بأن يثبتوا على الإيمان، ويزدادوا إيماناً، بردِّ ما يلقي الشيطان ﴿فَتُخْبِتَ﴾ أي فتطمئن ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد، والخشية، والإذعان لما فيه من الأوامر والنواهي، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ في الأمور الدينية، فيتأوَّلون ما يتشابه في الدين، بالتأويلات الصحيحة، فلا تلحقهم حيرة ولا شبهة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بالنظر الصحيح الذي يوصلهم إلى ما هو الحق.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي في شك وجدال ﴿مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي حتى تأتيهم القيامة فجأة من حيث لا يشعرون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ لا يوم بعده، كأنَّ كل يوم يلد ما بعده، كما يقال: الليلةُ الحبلى، فما لا يوم بعده يكون عقيماً، والمراد به الساعة أيضاً، كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، فوضع ذلك موضع ضميرها، لمزيد التهويل.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ أي السلطان القاهر، والتصرف على الإطلاق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده بلا شريك، بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف، لا صورةً ولا معنى ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أي بين المؤمنين به، والممارين فيه ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تفسير للحكم المذكور، أي فالذين آمنوا بالقرآن الكريم، ولم يماروا فيه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ امتثالاً بما أُمروا في تضاعيفه ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي مستقرون فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي أصرُّوا على ذلك واستمرُّوا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي يُهانون به، مع الخزي والصغار.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله، وطلب رضاه ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾ في تضاعيف المهاجرة، روى مجاهد أنها نزلت في طوائف، خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة، فتبعهم المشركون فقاتلوهم، وظاهر الكلام للعموم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ جواب لقسم محذوف ﴿رِزْقًا حَسَنًا ۚ﴾ أي لا ينقطع أبداً، من نعيم الجنة، وإنما سوى بينهما في الوعد، لاستوائهما في القصد، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنه يرزق بغير حساب، مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحد.

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله﴾ ﴿ مُّدْخَلًا ﴾ هو الجنة ﴿ يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ فإنهم يرون فيها، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر، فيرضونه ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم وأحوال معادهم ﴿ حَلِيمٌ ﴾ بإمهال من قاتلهم.

﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

﴿ ۞ ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمر ذلك، والجملة للتقرير ما قبله، والتنبيه على أن ما بعده كلام مستأنف ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ أي ولم يزد في الاقتصاص، ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ على من بغى عليه لا محالة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي مبالغ في العفو والغفران، وفيه تحريضٌ على العفو والمغفرة، وتنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة ومع ذلك يعفو. قيل: نزلت في قوم من المشركين، لقوا قوماً من المسلمين في المحرَّم، فقال بعضهم لبعض: إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام، فاحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن يكفُّوا عن قتالهم، لحرمة الشهر فأبوا وقاتلوهم، فذلك بغيهم عليهم، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ذلك النصر للمظلوم ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ أي بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن شأنه

المداولة بين الأشياء المتضادة، بإدخال الليل في النهار وبالعكس، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ بكل المسموعات ﴿بَصِيرٌ﴾ بجميع المبصرات.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الاتصاف بما ذكر، من كمال القدرة والعلم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواجب لذاته، الثابت في نفسه، وصفاته وأفعاله، فهو وحده المعبود الحق، وهو الخالق الرازق، العالم بكل المعلومات ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدوم الذي لا يقدر على شيء، الباطل في ألوهيته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك، لا شيء أعلى منه شأناً أو أكبر سلطاناً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ﴾ استفهام تقرير، كما يفصح عنه رفع فتصبحُ، أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها وجدبها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل لطفه، وعلمه إلى كل ما جلَّ ودقَّ ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يليق من التدابير وأحوال العباد.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خلقاً، وملكاً، وتصرفاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كل شيء ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد، بصفاته، وأفعاله.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جعل ما فيها من الأشياء مذللة لكم، معدة لمنافعكم، تتصرفون فيها كيف شئتم ﴿ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي بإذنه ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي من أن تقع، بأن خلقها على هيئة متداعية لا تستمسك بنفسها ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ أي بمشيئته تعالى، وفيه ردٌّ على من زعم استمساكها بذاتها، فإنها متساوية في الجسمية كسائر الأجسام فتكون قابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث هيأ لهم أسباب معاشهم، وفتح عليهم أبواب المنافع، وأوضح لهم مناهج الاستدلال، بالآيات التكوينية والتنزيلية.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ ﴾ عند البعث ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ أي جحود للنعم، مع ظهورها، لا يعرف نعمة الإنشاء المبدىء للوجود، ولا الإفناء المقرب إلى الموعود، ولا الإحياء الموصل إلى المقصود.

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۘ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي لكل أمة معينة، من الأمم الخالية والباقية

﴿جَعَلْنَا﴾ أي وضعنا وعينّا ﴿مَنسَكًا﴾ أي شريعة خاصة ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون به بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، وهو رد لقول من يقول: إن الذبح ليس بشريعة الله، إذ هو شريعة كل أمة ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي فلا تلتفت إلى قولهم، زعماً منهم أن شريعتهم التوراة والإنجيل، فإنهما كانا شريعتين لمن مضى من الأمم، وأهل هذا العصر أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد ﴿وَٱدْعُ﴾ ادع الناس كلَّهم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته، وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي طريقٍ موصل إلى الحق واضح مستقيم، موصلٍ إلى جنات النعيم، وهو دين الإسلام الخالد.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ تعنتاً كما يفعله السفهاء بعد ظهور الحق، ولزوم الحجة عليهم ﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيد ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأباطيل، ومنها المجادلة فيجازيكم عليها أسوأ الجزاء.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفصل بين المؤمنين منكم، والكافرين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالثواب والعقاب، كما فصل بالحجة والآيات في الدنيا ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيظهر حينئذٍ الحق من الباطل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ لتقرير أي قد علمت ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾

أي لا يخفى عليه شيءٌ من الأشياء، التي من جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما في السماوات والأرض ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، وقال أبو مسلم: معنى (الكتاب) الحفظُ والضبطُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من العلم والإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي هيِّنٌ، فإن علمه وقدرته مقتضى ذاته، فلا يخفى عليه شيء، ولا يعسر عليه مقدور.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي ما لم يرد به حجة ولا برهان ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾ أي ليس لهم علم بجواز عبادته، فهم إنما يعبدون الأصنام بمجرد الجهل، ومحض التقليد ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يساعدهم بنصرة مذهبهم، أو بدفع عذابهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي حال كونها واضحات الدلالة، على صدق الرسول، وكونها من عند الله عز وجل ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ أي الإنكار، والكراهة، والشر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي يكادون يبطشون بهم من فرط الغيظ، والسَّطْوُ: شدة البطش والوثوب ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ يعمُّ النبي ﷺ

وأصحابه ﴿قُلْ﴾ رداً عليهم، وإقناعاً عما يقصدونه من الإضرار ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فيكم من غيظكم على التالين ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وعدها الله لكل كافر فاجر، وبئست النار مرجعاً لهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي بُيِّن لكم حال مستغربة، وقصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلاً، تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة، وأريد بذلك ما حكى عنهم، من عبادتهم للأصنام ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ للمثل استماع تدبر وتفكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان للمثل يعني الأصنام ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين، وتخصيص الذباب لصغره، وضعفه، واستقذاره ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب، أي إنْ يأخذ الذباب منهم شيئاً ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ مع غاية ضعفه، ولقد جُهِّلوا غاية التجهيل، في إشراكهم بالله، القادر على جميع المقدورات، تماثيل هي أعجز الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلّها، وتعجز عن ذبِّه عن نفسها، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي عابد الصنم ومعبوده، أو الذباب الطالب والصنم المطلوب منه، ولو حقَّقْتَ وجدتَ الصنم أضعف من الذباب بدرجات، وعابدوه أجهل من كل جاهل وأضل.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته، حيث أشركوا

به أخسَّ الأشياء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها، وإفناء الموجودات عن آخرها ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع الأشياء، فكيف يتخذ العاجز شبيهاً به؟ فسبحان الله، الأوهام لا تصوره، والأفكار لا تقدره، والعقول لا تمثله، والأزمنة لا تدركه، والجهات لا تحيط به، صمدي الذات، سرمدي الصفات ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لهُ كُفُوَاً أَحَدٌ﴾.

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى﴾ يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل وميكائيل وغيرهما، يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء بالوحي ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يختار الله من الناس رسلاً، وهم الذين يختصون بالنفوس الزكية، المؤيدون بالقوة القدسية، المتعلقون بكلا العالمين الروحاني والجسماني، يتلقون من جانب ويلقون إلى جانب، ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق، عن التبتل إلى جانب الحق، فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم، ويعلمونهم شرائعه وأحكامه مثل «إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومُحمد» عليهم السلام.

كأنه تعالى لمَّا قرَّر وحدانيته في الألوهية، بيَّن أن له عباداً مصطفون لتبليغ الرسالة، وشرائع الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي هو الرقيب على العباد، يعلم أحوالهم وأعمالهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي مرجع أفعال العباد فيجازيهم عليها، فقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ الخ إشارة إلى العلم التام، وقوله: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ﴾ الخ إشارة إلى التفرد في الحكم، ومجموعها يقتضي نهاية التجنُّب عن المعاصي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ أي صلوا لربكم خاشعين، وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله وخرُّوا سجداً، وفيه دليل على أن هذه السجدة للصلاة، لا للتلاوة، لأنه تعالى قرن السجود بالركوع، وهو قولُ الحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وأبي حنيفة، ومالك، وروي عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس أنهم قالوا في الحج سجدتان، وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد، ويدل عليه ما روي عن عُقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله: أفي الحج سجدتان؟ قال: «نعم»[1] ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بسائر ما تعبدَكُم به، أخلصوا له العبادة ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح، في كل ما تأتون وما تذرون، كنوافل الطاعات، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق، وغير ذلك من أعمال البِرِّ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ أي افعلوا هذه كلها، وأنتم راجون للفلاح، كي تفوزوا وتسعدوا.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ أي جاهدوا لله تعالى، ومن أجله أعداءَ دينه، ومعنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ استفراغ الطاقة فيه وألاَّ يخاف في اللهِ

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود من رواية عُقبة بن عامر.

لومةَ لائم، وأن يكون الجهاد خالصاً لله، لتكون كلمة الله هي العليا، لقوله ﷺ «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[1] ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي هو اختاركم لدينه، ونصرته لا غيره، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي من ضيق وشدة، بتكليف ما يشقُّ عليكم إقامته، فليس في دين الإسلام، ما يصعب أو يستحيل فعله، فقد بعث ﷺ «بالحنيفية السمحة» فيها اليسر والسهولة، كقصر المسافر للصلاة، والتيمم عند فقد الماء، وتشريع الدية في القتل الخطأ.. الخ ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أعني بالدين ملة أبيكم وإنما جعله أباهم، لأنه أبٌ الرسول ﷺ، وهو كالأب لأمته، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته فغلبوا على غيرهم ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الكتب المتقدمة ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي وفي القرآن في قوله تعالى: ﴿ومن ذُرِّيتِنَا أُمةً مسلِمَةً لك﴾ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ يوم القيامة ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بطاعة من أطاع، وعصيان من عصى ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل لهم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي ثقوا بالله في أموركم ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ إذ لا مثل له، في الولاية والنصرة ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي نعم الناصرُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج».

* * *

(١) الحديث أخرجه الشيخان البخاري، ومسلم.